



## التربية والتعليم: الاستثمار في الإنسان

### أول النداء

ذ. محمد حمداوي

بسم الله الرحمن الرحيم

#### تثبيت الأخلاق والقيم الإيجابية أساسي في التربية والتعليم لتنمية المجتمع

شكل موضوع التربية والتعليم المحور الأساس في الحديث والتخطيط لكل نهضة وتقدم لدى كل الشعوب والحضارات خصوصا في عصرنا الحاضر. ولا أحد يجادل في أهمية التعليم في تحقيق التنمية بشقها الاجتماعي والاقتصادي. اجتماعيا لما يحققه التعليم في الإنسان من تطوير للفهم والتفاعل السريع مع المتغيرات والمطالب الضرورية للمجتمع السليم صحيا وأخلاقيا، ولتماسكه وتقوية نسيجه التلاحمي داخل الأمة الواحدة. واقتصاديا مما يوفره التعليم من معرفة أساسية من أجل القيام بالوظيفة المطلوبة، وكذا مما يتيح من قدرة على تطوير المهارات واكتساب تعلمات وتقنيات جديدة تكون أحيانا حاسمة في تحصيل أي إنتاج. لهذا تجد دائما التناسب بين نسبة انتشار التعليم الفعال ونسبة النمو الاقتصادي الصرف في كل الأمم.

وفي المجتمعات ذات الغيرة على تقدم حضاراتها والحريصة على احتلال المراتب المتقدمة بين الأمم، ينصب الجهد والاهتمام على الاستثمار في الإنسان السليم منذ أن يكون طفلا حيث الحرص على تعميم التعليم كما ونوعا، إلى مصاحبته طوال حياته بالتأهيل والتكوين من حيث المعارف والمهارات والقيم الإيجابية البانية للمجتمع.

أما المجتمعات غير المكترثة دولها بالمصالح الحيوية والاستراتيجية لأمتها وحضارتها فإنها لا تلقي بالا لأهمية الإنسان في صنع التغيير الحقيقي، بل وتتخوف من المجتمع المتعلم فلا تستثمر في تعليم الإنسان وتأهيله وتتركه غارقاً في جهله وأميته الأبجدية والمعرفية والتقنية. في حين تراها تفتح الأبواب في الاستثمار في هذا الإنسان إما في محاولات استغلال جهله وتوظيفه في مسارات سياسية خادمة تعيد إنتاج نفس الوضع السياسي للاستبداد، ومن أجل الحفاظ على حالة السكون والجمود المرجحة لكفة القلة الجامعة بين السلطة والثروة بشكل فاحش جداً، تستحوذ بموجبه هذه السلطة على معظم الثروة الوطنية وتترك الفتات لعموم الشعب، أو تستثمر في الإنسان المريض صحياً بالتكاليف الباهضة للاستشفاء وبالغلاء العام وبالديون القاهرة التي تشكل حبل معاناة يطوق أعناق المستضعفين من أبناء الأمة.

لقد فتحت أبواب الأمة مشرعة لكل فساد وإفساد ولكل القيم الوافدة، الطالح منها أكثر من الصالح في محاولات لتنميط مجتمعاتنا فقط على الجوانب السيئة في الحضارة الغربية. ولأن الأهداف الكاملة لم تتحقق، تم تصويب السهام مدة من الزمن نحو المرأة، ثم أخيراً نحو الأسرة والقيم والأخلاق، لإدراكهم لأهمية الأسرة والقيم والأخلاق في إفشال المخططات التي كانوا يريدونها كاملة مدمرة للأمة.

إننا نعتبر الحفاظ على الأسرة وتثبيت الأخلاق والقيم الإيجابية في المجتمع شرطاً أساسياً إلى جانب التعليم والمعرفة في كل نهضة نستشرفها لهذه الأمة. ولننتعظ بمآلات الأمم التي أخذت بناصية العلم والمعرفة مجردة من كل خلق وبنية أسرية إلى أين صارت أحوالها.

ألف الكاتب الأمريكي باتريك جوزيف بوكانن<sup>1</sup> Patrick Joseph Buchanan كتاباً مهماً عنوانه "موت الغرب"<sup>2</sup> يتحدث فيه عن "الموت الأخلاقي" للغرب بسبب

<sup>1</sup> باتريك جوزيف بوكانن سياسي ومفكر أمريكي معروف عمل مستشاراً لثلاثة رؤساء أمريكيين وهو كاتب لعمود صحافي دائم في عدد من الصحف الأمريكية ومؤسس لثلاثة من أشهر برامج التلفزيون في أكبر قناتين أمريكيتين: (إن. بي. سي) و (سي. إن. إن). ألف العديد من الكتب منها: الكتابان المشهوران جداً: "محقق منذ البداية" – "جمهورية لا إمبراطورية"، واللذان كانا من أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة. أنظر أيضاً الرابط:

السقوط الأخلاقي الذي ألغى كل القيم التربوية والأسرية والأخلاقية التقليدية و" الموت الديموغرافي والبيولوجي" الناتج عن النقص السكاني بسبب الموت الطبيعي وعدم تعويض هذا النقص بولادات جديدة.

يقول الكاتب:

"الغرب يموت، لقد توقفت أُممه عن التكاثر، وتوقف سكانه عن النمو، وبدؤوا في الانكماش، ولم يَمُ -منذ الموت الأسود (الطاعون) الذي حصد أرواح ثلث سكان أوروبا في القرن الرابع عشر- تهديد لبقاء الحضارة الأوروبية أخطر من هذا الخطر المائل اليوم؛ هناك سبعة عشر بلدًا أوروبيًا فيها جنازات دفن أكثر من احتفالات الولادة، وهناك أكفان أكثر من المهود، (...) وجميع ملل النصرانية: الكاثوليك، والبروتستانت، والأرثوذكس، مُمثلون في المسيرة العظيمة لموت الغرب"<sup>3</sup>

ويقول أيضا "توقفت الشعوب الأوروبية عن التكاثر، وبدأ عدد السكان في التوقف، ومن بين الأمم الأوربية السبع والأربعين هناك أمة واحدة فقط، وهي ألبانيا المسلمة، كانت ما تزال تحتفظ في العام 2000 بمعدل مواليد كافٍ ليُبقيها حيّةً إلى أجلٍ غير محدد، أمّا بقية أوروبا فقد بدأت تموت"<sup>4</sup>.

ويقول أيضا:

"مفارقة المفارقات، اليوم يضغط غربُ نصراني مُسنٌ يموت على العالم الثالث، وعلى العالم الإسلامي، ليُقبل منع الحمل والإجهاض والتعقيم مثلما فعل

<http://www.alukah.net/culture/0/75225/#ixzz3uhjzoD3h>

<sup>2</sup> باتريك جوزيف بوكانن Patrick Joseph Buchanan، "موت الغرب -أثر شيخوخة السكان وموتهم وغزوات المهاجرين على الغرب"، ترجمة: محمد محمود التوبة، مراجعة: محمد بن حامد الأميري، الناشر: مكتبة العبيكان، السنة: 1426هـ / 2005م.

<sup>3</sup> نفس المرجع، ص 27.

<sup>4</sup> نفسه ص 32.

الغرب، ولكن لماذا عليهم أن يدخلوا حلف انتحار معنا، في الوقت الذي يقفون فيه لورثة الأرض عندما نكون قد ذهبنا؟!<sup>5</sup>.

كما يعطي مقارنة بين تزايد السكان الصهيانية في فلسطين المحتلة والفلسطينيين حيث يذكر أن معدل الخصوبة عند الفلسطينيين داخل الأراضي المحتلة عام 1948 هو 4,5 أطفال لكل امرأة، وفي الضفة الغربية 5,5 أطفال لكل امرأة، وفي غزة 6,6 أطفال لكل امرأة، وهذه الزيادة في معدل الخصوبة بالنسبة للفلسطينيين والجيران العرب تضع الكيان الصهيوني بين فكّي كماشة، ففي السنوات الخمس والعشرين المقبلة، سيَنمو عدد اليهود الصهيانية، فيزيد (2,1) مليونين ومائة ألف نسمة، بينما سيتعاظم عدد جيرانها العرب ويزدادون (62,2) اثنين وستين مليوناً ومائتي ألف نسمة، وبالطبع يُمكنكم تخيّل النتيجة المتوقعة.

وكانت النتيجة الحتمية لموت النصرانية "المحافظة" في بلاد الغرب، أنه في الوقت الذي بدأت فيه النصرانية تموت في الغرب، حدث شيء آخر، "لقد بدأت الشعوب الغربية تتوقّف عن إنجاب الأطفال؛ وذلك لأن الارتباط بين الإيمان الديني وبين إنجاز العائلات الكبيرة، هو ارتباط مُطلق، وكلما ازداد الوازع الديني عند شعب - سواء أكان نصرانياً، أم مسلماً، أم يهودياً - كان معدل الولادة عنده أعلى.<sup>6</sup>

وصار القانون الجديد هو الواجهة الحضارية لثقافة الغرب: "اقتل إيمان الأُمّة، فيتوقّف شعبها عن التوالّد، وعند ذلك ستدخل الجيوش الأجنبية أو سيدخل المهاجرون؛ ليملؤوا الأماكن الشاغرة".<sup>7</sup>

وفي إحصاء إدارة السكان في الأمم المتحدة لعام 2001، ذكرت أنه في العام 2000 بلغ العدد الإجماليّ لسكّان أوروبا من "أيسلندا" إلى "روسيا" 728 مليون نسمة، ولكن وفقاً لمعدلات الولادة الحالية، وبدون هجرة جديدة، فسوف يهبط عدد سكّانها

<sup>5</sup> نفسه ص 104.

<sup>6</sup> نفسه ص 340 - 341.

<sup>7</sup> نفسه ص 432.

إلى 600 مليون نسمة مع حلول عام 2050، وترى دراسة أخرى أنه رُبَّما يهبط العدد إلى 556 مليون نسمة مع منتصف القرن، "وأخر مرة أظهر فيها عدد سكان أوروبا هبوطاً يُمثل هذه الضخامة كانت أثناء الموت الأسود(الطاعون) من 1347-1352"<sup>8</sup>.

وقد هبط بالفعل معدّل الخصوبة المتوسّطة عند المرأة الأوروبيّة إلى 1,4 أطفال؛ علماً بأنّ الحاجة تدعو إلى 2,1 أطفال؛ لمجرّد تعويض عدد السُكان الموجودين حالياً، "ويقول "بن واتينبرج" معلّقاً على ذلك: " هذا لا يعني أن معدل النمو صفر، بل يعني أن معدل السكان صفر"<sup>9</sup>.

ويرى "بوكانن" "أنّه إذا لم يرتفع معدّل خصوبة أوروبا، فإنّ عدد الأطفال الأوروبيين تحت سنّ الخامسة عشرة سوف يهبط بنسبة 40 % إلى 87 مليون نسمة بحلول عام 2050، وهذا في الوقت الذي يرتفع فيه عدد المسنّين بنسبة 50 % إلى 169 مليون نسمة، وسيكون متوسّط عمر الأوروبي 50 عاماً، وهو الأعلى في التّاريخ، وقد كتب عالم السُكان الفرنسيّ "ألفريد سوفي" عن أوروبا، قائلاً: إنّها توشك أن تصبح قارّة تتكوّن من شعب مسنّ في بيوت قديمة وأفكار قديمة وهو ما يعني أنّ موت الغرب أمرٌ لا مَناس منه، أو على وجه الأصحّ ليس تنبؤاً بما سيحدث، ولكنه تصويرٌ لما يحدث الآن."<sup>10</sup>

فقد ارتفعت الأعداد السنوية لعمليات الإجهاض في الولايات المتحدة من ستة آلاف حالة سنوياً عام 1966 إلى 600 ألف عام 1976 بعد أن سمح بالإجهاض واعتبرت عملية قتل الأجنة حقاً للمرأة يحميه الدستور وبعد عشر سنوات وصل الرقم إلى (مليون ونصف حالة إجهاض) في العام الواحد.

<sup>8</sup> نفسه ص 34.

<sup>9</sup> نفسه ص 34.

<sup>10</sup> نفسه ص 54.

أما نسبة الأطفال غير الشرعيين فهي تبلغ اليوم 25 في المائة من العدد الإجمالي للأطفال الأمريكيين ويعيش ثلث أطفال أمريكا في منازل دون أحد الأبوين (إما بدون الأب وهو الغالب وأما بدون الام).

كما ارتفع عدد حالات الانتحار بين المراهقين الأمريكيين ثلاثة أضعاف ما كانت عليه عام 1960 أما عدد مدمني المخدرات (المدمنين وليس المتعاطين) فقد بلغ أكثر من ستة ملايين شخص في الولايات المتحدة وحدها.!!

إن انهيار الأسرة التي تمثل الوحدة الأساسية للمجتمع وشيوع العلاقات الجنسية خارج إطار المؤسسة الزوجية إضافة إلى تشجيع وتقنين العلاقات الجنسية الشاذة بين أبناء الجنس الواحد وارتفاع أعداد الإجهاض تبعا لهذه الثقافة قد أدى بالغرب إلى كل هذه الكوارث.

واليوم تحاول أطراف عدة أن تنقل هذه الطوام من الغرب وتعمل جاهدة بشتى السبل على دفع مجتمعاتنا العربية والإسلامية على التطبيع مع هذه الفواحش، ومنها الشذوذ الجنسي، هذه الفعلية المنحطة والمستقبحة شرعا وعقلا ومروءة وذوقا، إذ كيف يأتي إنسان إنسانا آخر في دبره، وفي مكان مستقذر جعل لطرح فضلات الجسم كله جراثيم ضارة ورائحة منتنة ...

إن هذه المحاولات تستهدف ضرب القيم الأساسية لهوية الأمة ومحاولة إلحاقها بأمم جربت مثل هذه الطوام، كما رأينا أعلاه وشهد بذلك أبنائنا، فوصلت إلى الحضيض على مستوى شيوع الفاحشة والتفكك الأسري والمجتمعي وظهور وانتشار الأمراض التي لم تكن في أسلافهم. وكأن هذه الشعوب المسلمة أمة لقيطة لا أصل لها ولا فصل كمجموعة من الأصناف البشرية التي انبعثت من مزابل التاريخ وتريد أن تقيم لها حضارة على جماجم المستضعفين... إن هذه أمة لها دينها ولها أخلاقها ولها هويتها ولها تاريخها ولها تماسكها المجتمعي العام... كل ذلك يجعلها سدا منيعا أمام هذه الدعوات الشاذة للتطبيع مع الرذيلة ومع الأعمال والممارسات الساقطة.

أغلب هؤلاء المنفذين الذين يعملون على نشر الفاحشة في الأمة ضحايا توظيف ماكر من قبل جهات لها مصلحة في خلخلة النسيج القيمي الاجتماعي للأمة، ومجموعة أخرى ابتليت في سياق انحرافات عامة تعرفها نواذ تمارس فيها أشكال من الموبقات من وراء جُدر...

إن التوعية ضرورية لهؤلاء ليتبينوا عظم ما يقتفون من الناحية الشرعية وكذلك من الناحية العلمية الصحية. وهذه مهمة الجميع من دعاة وعلماء وخبراء ومرشدين اجتماعيين.

إن هذه الأعمال لن تضر في نهاية المطاف إلا فاعليها، يفضحون أمام الملأ ويجلبون لأنفسهم غضب ربهم، ولن ينالوا من دين الأمة ومن قيمها وأخلاقها بإذن الله شيئا... وهذه دعوة لهم جميعا إلى التوبة إلى الله عز وجل والكف عن الجهر بما حرم الله وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم. (فمن ابتلي بشيء من ذلك فليستتر بستر الله)، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمُ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>11</sup>.

ولننظر في هذه الآيات التي تبين ما أصاب فاعلي هذه الرذيلة من غضب وعذاب من الله الجبار المقتدر، إذ اعتبرها الإسلام من أقبح الذنوب، وأسوأ الأفعال وقد عاقب الله فاعليها بما لم يعاقب به أمة من الأمم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾<sup>12</sup>.

<sup>11</sup> سورة التحريم، الآية: 8.

<sup>12</sup> سورة الأعراف الآية: 80-84

وقال سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ. فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾<sup>13</sup>.

وروى أحمد في الحديث الحسن عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمَلَ عَمَلًا قَوْمَ لُوطٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمَلَ عَمَلًا قَوْمَ لُوطٍ، ثَلَاثًا﴾.

وقال صلى الله عليه وسلم أيضا: ﴿يا معشر المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قطُّ حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم يُنقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا الهائم لم يُمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوًّا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكُم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم﴾<sup>14</sup>.

وتؤكد كثير من الدراسات والأبحاث العلمية، حقيقة ما أخبرنا الله به، والآثار الكارثية التي يخلقها هذا الانحراف في السلوك الجنسي عن الفطرة السوية للإنسان.

نذكر نتائج<sup>15</sup> بعض هذه الدراسات منها، أن المصابين بمرض السيدا نسبة الذين يمارسون الشذوذ الجنسي فيهم جد عالية، مثل هولندا 68.6%، والمملكة المتحدة 65.8%، وهاتين الدولتين تسمح بممارسة الشذوذ الجنسي بكل حرية، وكذلك أظهرت هذه الدراسات أن الاضطرابات النفسية التي تصيب الشواذ جنسيا من الرجال هي أكبر بحوالي 3 مرات من التي تصيب الأسوياء.

<sup>13</sup> سورة الحجر الآية: 72-76

<sup>14</sup> رواه ابن ماجه في سننه. والحاكم وقال صحيح الإسناد وحسنه غيره.

<sup>15</sup> وردت في موقع إسلام أون لاين ، د. نادية العوضي، بتاريخ: 2001/09/11



فريق بحث هولندي أظهر في دراسة له، أن الشواذ من الرجال يصابون بالاضطرابات المزاجية التي تستمر لأكثر من 12 شهراً بمعدل 2.94 مرة عن غيرهم من الأسوياء. كما يصابون باضطرابات الحصر النفسي *anxiété* التي تستمر لأكثر من 12 شهراً بمعدل 2.61 مرة عن غيرهم من الأسوياء، وفي دراسة أخرى أظهرت أن محاولات الانتحار بين الشواذ من الرجال هي أعلى بـ 6.5 مرات منها في الأسوياء.

كما أظهرت عدة دراسات أن كثير من الأمراض المعدية وغير المعدية يكون سببها الممارسة الجنسية الشاذة مثل أمراض: الإيدز، السيلان *gonorrhée*، الزهري *syphilis*، الهربس البسيط النشط *herpès simplex virus*، سرطان الشرج، الالتهاب بفيروس الورم الحليمي الإنساني *human papillomavirus*، مرض كابوسي الخبيث *Kaposi sarcome*، سرطان الغدد الليمفاوية هودجكن، الخلل بالجهاز المناعي، ...

إن الخصوصيات الدينية والثقافية والحضارية لها مهمة أساسية في استنهاض الإنسان كي يندمج في الخطط الوطنية للتنمية بكل أبعادها. وفي بلادنا العربية والإسلامية لم ولن تنجح أية محاولة للاستنساخ الهجين للمسار الغربي في استنبات التنمية بسبب تناقض هذا الاستنساخ مع قيم الأمة، وكذلك لغياب أجواء الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية باعتبارها من القيم المشتركة الضرورية لأي إقلاع حضاري.